

محمود سامى البارودى

١٨٤٠ - ١٩٠٤



محمود سامى البارودى هو إمام الشعراء المحدثين قاطبة ، وباكورة الأعلام فى دولة الشعر الحديث ، وأول من نهض به وجارى فى نظمه فحول الشعراء المتقدمين ، فبعث النهضة الشعرية من مرقدتها بعد طول الخمود .

ولد سنة ١٨٤٠ ، وهو ابن حسن بك حسنى من ضباط المدفعية فى الجيش المصرى ، وحفيد عبد الله الجركسى أحد الكشاف فى عهد محمد على ، وسمى

البارودى نسبة إلى إيتاى البارود التى كان أحد أجداده الأمير مراد البارودى ملتزماً لها فى عهد الالتزام .

وقد تلقى العلم أول ما تلقاه على أيدي أساتذة خصوصيين فى سراى والده بغيطة العدة (القرية من باب الخلق) والمعروفة بسراى البارودى ، ولما بلغ الثانية عشر من عمره انتظم فى المدرسة الحربية ، وتخرج منها سنة ١٨٥٥ ، والتحق بخدمة الجيش المصرى ، وأخذ يترقى حتى بلغ رتبة أميرالاي ، وخاض غمار الحروب فى ثورة كريد سنة ١٨٦٦ ، إذ كان ضابطاً فى الجيش الذى أنفذته مصر لإخماد تلك الثورة وانتصر على الثوار فى مواقع عدة .

ولما شبت الحرب بين تركيا والروسيا سنة ١٨٧٧ أنفذت مصر جيشاً لنجدة تركيا كان البارودى من ضباطه ، وأبلى فى الحرب بلاء حسناً ، وصقلت المعارك مواهبه الشعرية ، ولما عاد إلى مصر رقى إلى رتبة اللواء ، وعين مديراً للشرقية ، وكان محافظاً للعاصمة حين أُلّف شريف باشا وزارته الثانية سنة ١٨٧٩ فى أوائل عهد الخديو توفيق ، فاختره فيها وزيراً للمعارف والأوقاف ، واشترك فى حوادث الثورة العرابية ، وكان من زعمائها المشار إليهم

بالبنان ، وتولى رئاسة وزارة الثورة سنة ١٨٨٢ ، ثم كانت المهزيمية ، ونفى مع زملائه إلى جزيرة سيلان (سرديب) ، وظل في منفاه نيفا وسبعة عشر عاما ، وأسبغ عليه النفي سمات التضحية والبطولة^(١) .

الحنين إلى الوطن

كانت حياة زعماء الثورة العراقية في منفاهم حياة ألم وحزن ، إذ انقطعت صلتهم بالناس ، وطال اغترابهم عن أرض الوطن ، وبعدت الشقة بينهم وبين أهليهم ومواطنيهم ، ولم يكثر لهم أحد ، ولم يعطف عليهم أحد (والناس مع الغالب !) ، وجادت قريحة البارودي بشعر مؤثر في الحنين إلى الوطن ، والحزن على فراقه ، مما يعد آية في البلاغة ، وبلغت سليقته الشعرية في منفاه ذروة العظمة والجلال .

قال يصف الرحيل عن أرض الوطن :

مَحَاَ البينُ ما أبقت عيون المها مني
عَنَاءٌ وَيَأْسٌ وَاشْتِيَاقٌ وَغُرْبَةٌ
فَشَبْتُ ولم أقض اللبانة من سنِّي
ألا شَدَّ ما ألقاه في الدهر من غبن
إلى أن قال :

ولما وقفنا للوداع وأسبلت
أهبت بصري أن يعود فبرّني
مدامعنا فوق الترائب كاللزن
وناديت حلمي أن يثوب فلم يعن
وما هي إلا خطوة ثم أقلمت
فكم مهجة من زفرة الشوق في لظي
وكم مقلة من غزرة الدمع في دجن
فلما دهنتي كدت أقضى من الحزن
إلى الحزم رأى لا يحوم على أفن
ولولا بنات وشيب عواطل
لما قرعت نفسي على فائت سني

الصبر على الشدائد

وتجلت في منفاه صفاته العالية من الشم ، وعلو النفس ، واحتمل آلام النفي

(١) راجع ترجمته تفصيلا في كتابنا (الثورة العراقية ، والاحتلال الإنجليزي) .

بشجاعة وإباء ، وصبر وإيمان ، وله في ذلك شعر يفيض بهذه المعاني السامية .

قال وهو في سرنديب (سيلان) :

لم أقترف زلّة تقضى عليّ بما
فهل دفاعي عن ديني وعن وطني
فلا يظن بي الحساد مندمة
أثريت مجدا فلم أعبا بما سلبت
لا يخفض البؤس نفسا وهي عالية
وقال مشيرا إلى مصادرة أملاكه :

يا ناصر الحق على الباطل
أخرجني عما حوته يدي
من غير ما ذنب سوى منطق
فإن أكن جرّدت من ثروتي
أصبحت فيه فماذا الويل والحرب ؟
ذنب أدان به ظلما وأغترب ؟
فإنتي صابر في الله محتسب
أيدى الحوادث مني فهو مكتسب
ولا يشيد بذكر الخامل النشب (١)

وقال من قصيدة أخرى في مقاومة الظلم والصدود أمام المحن والخطوب :

إذا المرء لم يدفع يد الجور إن سَطَّتْ
ومن ذلّ خوف الموت كانت حياته
وأقتل داء رؤية العيين ظلما
علام يعيش المرء في الدهر خاملا
عفا على الدنيا إذا المرء لم يعش
وقال في هذا المعنى :

أمطري لؤلؤا جبال (سرنديب)
أنا إن عشت لست أعدم قوتا
همتي همّة الملوك ونفسي
ب (وفيض آبار (تكرور) تبرا
وإذا مت لست أعدم قبرا
نفس حرّ ترى المذلة كفرا

(١) النشب : المال والعقار .

(٢) الناقل : الشيء القليل .

(٣) القاطل : القاطع .

ومن قوله في الحنين إلى الوطن والصبر على الشدائد :

فيا دموع القطر سلى دما ويا بنات الأيك نُوحى معي
وأنت يا نسمة (وادي) الغضا مرّى بريّاك على مرّبعي
وأنت يا عصفورة المنحنى بالله غنّي طربا واسنجعي
وأنت يا عين إذا لم تقى بدمّة الدمع فلا تهجمي
أبيت أرعى النجم في سدفة ضلّ بها الصبح فلم يطلع

فهل إلى الأشواق من غاية أم هل إلى الأوطان من مرجع؟
لا تأسَ يا قلبُ على ما مضى لا بد للمحنة من مقطع

يتمنى أن يرى مصر

وقال في منفاه يتمنى أن يرى مصر :

يا حبذا جرعةٌ من ماءٍ مَحْنِيَّةٍ وضجعةٌ فوق برد الرمل بالقاع^(١)
ونسمةٌ كشميم الخلد قد حملت ريباً الأزاهر من ميثٍ وأجرع^(٢)
يا هل أراني بذاك الحى مجتمعا بأهل ودي من قومي وأشياعي ؟

وقال في هذا المعنى :

أبيت حزينا في (سرنديب) ساهرا طوال الليالي والخلّيون هَجَّـدُ
إذا خطرت من نحو (حلوان) نسمة نَزَتْ بين قلبي شـملة تتوقد
شبابٌ وإخوانٌ رزئتُ ودادم وكل امرئ في الدهر يشقى ويسعد ا

ومن قصيدة له في هذا المعنى قالها في منفاه يتشوق إلى الوطن :

هل من طيبٍ لداء الحب أوراق يشقى عليلا أخوا حزن وإراق^(٣)
قد كان أبقى الهوى من مهجتي رمقا حتى جرى البينُ فاستولى على الباقي

(١) المحنية : ما انحنى من الأرض .

(٢) الميث : جمع ميثاء الأرض اللينة .

(٣) الراق : اسم فاعل من رفاه يرقيه أى عوّذه فهو راق .

وفيها يقول :

يا روضة النيل لا مَسَّتِكَ بائنةٌ
ولا برحتِ من الأوراقِ في حُلَلٍ
يا حبذا نَسَمٌ من جوِّها عَبِقٌ
مرَّعَى جِيادِي وماؤى جِيرَتِي وَهَمِي
أصبو إليها على بُعدٍ ويعجبنى
وكيف أنسى دياراً قد تركتُ بها

ولا عدتكَ سماءُ ذاتِ إغداقٍ^(١)
من سندسٍ عبقرىِّ الوشىِّ برَّاقٍ
يسرى على جدولِ الماءِ دَفَّاقٍ
قَومِي ومنبتُ آدابِي وأعرافِي
أنى أعيشُ بها فى ثوبِ إِملاقٍ
أهلاً كراماً لهم ودى وإشفاقِي

فيا بريدَ الصَّبَا^(٢) بلغ ذوى رحمِي
وأنتَ يا طائراً بيكى على فَنَنِ
أذكرتَنى ما مضى والشملُ مجتمَعٌ

أنى مقيم على عهدى وميثاقِي
نفسى فداؤك من ساقٍ على ساقٍ
بمصر والحربُ لم تنهض على ساقٍ

وقال أيضاً فى منفاه :

رُدُّوا على الصبا من عصرى الخالى
ماض من العيش ما لاحت مخايله
أدهى المصائب غدر قبله ثقة

وهل يعود سوادُ اللمة البالى ؟
فى صفحة الفكر إلا هاج بلبالى
وأقبح الظلم صدَّ بعد إقبال

لا عيب فى سوى حرية ملكت
قلبى سليم ونفسى حرة ويدي
بلوت دهرى فما أحمدت سيرته
حلبت شطريه من يسر ومعسرة
لم يبق لى أرب فى الدهر أطلبه
وأين أدرك ما أبغيه من وطر ؟

أعنتى عن قبول الذل بالمال
مأمونة ولسانى غير ختال
فى سابق من لياليه ولا تالى
وذقت طعميه من خصب وإحمال
إلا صحابة حُرر صادق الخال
والصدق فى الدهر أعياء كل محتال

(١) البائنة : الداهية والبليّة . ولا عدتكَ : اى لا تجاوزتكَ .

(٢) الصبا بالفتح : ريح معروفة .

لا في (سرنديب) لي إلف أجاذبه
أبيت منفردا في رأس شاهقة
إذا تلفتُ لم أبصر سوى صور
فضل الحديث ولا خلّ فيرعى لي
مثل القطامي فوق المرأب العالى
في الذهن يرسمها نقاش آمالي

علام أجزع والأيام تشهد لي
راجعتُ فهرس آثاري فالحمت
فكيف ينكر قومي فضل بادرتي
أنا ابن قولي وحسبي في الفخار به
ولى من الشعر آيات مفصلة
ينسى لها الفائد المحزون لوعته
فانظر لقولي تجد نفسي مصورة
ولا تغرنك في الدنيا مشاكلة
إن ابن آدم لولا عقله شَبَّحُ
ومن قصيدة له يتشوق إلى مصر:

خليّ هذا الشوق لاشك قاتلي
ففي ذلك (الوادي) الذي أنبت الهوى
وقال في هذا المعنى:

طال شوقي إلى الديار ولكن
حبذا (النيل) حين يجري فيدي
تتثنى العصون في حافتيه
قلدتها يد الغمام عقودا
كيف لا تهتف الحمام عليه
كلما صورته نفسي لعيني
أين من (مصر) من أقام (بكندي)^(١)
رونق السيف واهترزاز الفرند
كالعذارى يسحبن وشي الفرند
هي أبهى من كل عقد وبند
وهي تسقى به سلافة قند
قدح الشوق في الفؤاد بزند

(١) كندی مدينة صغيرة في جزيرة سيلان (سرنديب).

الحنين إلى الأهل والولد

وقال في منغاه وقد رأى في المنام ابنته الوسطى :

تَأْوَبَ (١) طَيْفًا مِنْ (سَمِيرَةَ) زَائِرًا
طَوَى سُدْفَةً (٢) الظلما، والليل ضاربًا
فِيالِكَ مِنْ طَيْفِ أُمِّ وَدُونِهِ
تَخْطَى إِلَى الْأَرْضِ وَجَدًّا وَمَا لَهُ
أُمٌّ وَلَمْ يَلْبَثْ وَسَارَ وَلَيْتَهُ
تَحْمِلُ أَهْوَالَ الظلامِ مَخَاطِرًا
« خَلَّاسِيَّةٌ (٣) » لَمْ تَدْرَ مَا اللَّيْلُ وَالسَّرِيُّ
فِيَا بَعْدَ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ أَحَبَّيْتِي
وَلَوْلَا أَمَانِي النَّفْسِ وَهِيَ حَيَاتِهَا
فَإِن تَكُن الْأَيَّامُ فَرَّقَن بَيْنَنَا
إِلَى أَنْ قَالَ :

فَلَا يَشْمَتُ الْأَعْدَاءُ بِي فَلَرَبِّمَا
فَقَدْ يَسْتَقِيمُ الْأَمْرُ بَعْدَ اعْوِجَاجِهِ
وَلِي أَمَلٌ فِي اللَّهِ تَحِيًّا بِهِ الْمُنَى
إِذَا الْمَرْءُ لَمْ يَرْكُنْ إِلَى اللَّهِ فِي الَّذِي
وَإِنْ هُوَ لَمْ يَصْبِرْ عَلَى مَا أَصَابَهُ
وَمَنْ لَمْ يَنْقِ حُلُوَ الزَّمَانِ وَمُرَّه
عَلَى طِلَابِ الْعِزِّ مِنْ مَسْتَقَرِّهِ
إِلَى أَنْ قَالَ :

فَإِن كُنْتَ قَدْ أَصْبَحْتَ فَلَ (٤) رِزِيَّةً

(٢) السدفة : الستر .

(٤) فل : أى منهزم .

(١) تأوب : أى آوى ليلا

(٣) أى بنت خمس سنوات .

فكم بطلٍ فلَّ الزمان شَبَاتَهُ وكم سيّدٍ دارت عليه الدوائر
فسوف بين الحق يوماً لناظِرٍ وَتَنَزُّوْ^(١) بِعَوْرَاءِ الْحُقُودِ السَّرَائِرِ
وما هي إلا غمرةٌ ثم تنجلي غيابتها والله من شاء ناصر
فقد حاطني في ظلمة الحبس بعدما ترامت بأفلاذ القلوب الحناجر

فهيلاً بنى الدنيا علينا فإننا إلى غاية تَنَفَّتْ فيها المرائر
تطول بها الأنفاس بهراً^(٢) وتلتوى على فلكة الساقين فيها المآزر
هنالك يعلو الحق والحق واضحٌ ويسفل كعب الزور والزور عاثر
وعما قليل ينتهى الأمر كله فما أولٌ إلا ويتلوه آخر

يشيد بمظمة الأهرام

قال يصف (الأهرام) ويشيد بعظمتها :
سل (الجيزة) الفيحاء عن (هرمى) مصر
بناء ان رداً صولة الدهر عنهما
أقاما على رغم الخطوب ليشهدا
فكم أمم في الدهر بادت وأعصر
تلوح لآثار العسقول عليهما
رموز لو استطلعت مكنون سرها
فما من بناء كان أو هو كائن
وختمها بقوله :

إلى ذلك البرج المظل على النهر
فصوبى عليها بالنتار من القطر
بها لا بربات القلائد والشذر^(٣)
فيانسمات الفجر أدى تحيتي
ويالمعات البرق إن جزت بالحى
عليها سلام من فؤاد مقيم

(١) تنزرو تطمح يقال : نزا به قلبه طمح .

(٢) بهرا بالضم تتابع الأنفاس من الإعياء في اللسان .

(٣) الشذر : صغار اللؤلؤ .

ولا برحت في الدهر وهي خوالد خود الدراى والأوايد من شعرى

شعر القتال

ومن قصيدة له في وصف إحدى المعارك التي خاضها، ويبدو منها مبلغ شجاعته وصبره على أهوال القتال :

ولما تداعى القوم واشتبك القنا ودارت كما تهوى على قطبها الحرب
وزين للناس الفرار من الردى وماجت صدور الخيل والتهب الضرب
ودارت بنا الأرض الفضاء كأننا سقينا بكأس لا يفيق لها شرب
صبرت لها حتى تجلت سماؤها وإني صبور إن ألم بي الخطب

الفساد في عهد إسماعيل

وقال من قصيدة يصف سوء الحكم وظلم الحكام في عهد إسماعيل ، وينصح قومه بالمطالبة بحقوقهم والمبادرة بإصلاح شؤونهم قبل أن تسوء العقبى ، وهي من شعره السياسى الوطنى الرائع :

قامت به من رجال السوء طائفة أدهى على النفس من بؤس على ثكل
من كل وغد يكاد الدست يدفعه بغضا ويلفظه الديوان من ملل
ذلت بهم مصر بعد العز واضطربت قواعد الملك حتى ظل في خلل
إلى أن قال :

فبادروا الأمر قبل الغوث واتزعوا شكاله الريث فالدينا مع العجل
وطالبوا بحقك أصبحت غرضاً لكل من تزع سهماً ومختل
حتى تعود سماء الأمن ضاحية ويرفل العدل في ضاف من الخلل

الجيش والدستور

وقال في أوائل عهد الخديو توفيق يدعو إلى الشورى وتقوية الجيش :
أمران ما اجتماعاً لقائد أمة إلا جنى بهما ثمار السؤدد

(جمع) يكون الأمر فيما بينهم (شورى) وجند للعدو بمرصد

يندد بالدسائس

وقال من قصيدة يشكو فيها من الدسائس التي كانت تحاك حوله :
نقموا على حميتى فتألبوا حزبا على وأجمعوا ما أجمعوا
وسعوا بفريبتهم فلما صادفوا سمعا يميل إلى الملام توسعوا
لا عيب في سوى حمية ماجد والسيف يغلبه المضاء فيقطع

يحث على الاعتدال ، ويستنكر الذل

قال في هذا المعنى :

إذا شئت أن تحيا سعيدا فلا تكن لدودا ولا تدفع يد اللين بالقسر
ولا تحنقر ذا فاقة فلربما لقيت به شهما يبرّ على المثرى
فربّ فقير يملأ القلب حكمة وربّ غنى لا يريش ولا يبرى^(١)
وكن وسطا لا مشربيا إلى الشهى ولا قانعا يبغي التزلف للصفير^(٢)
فأحد أخلاق الفتى ما تكافأت بمنزلة بين التواضع والكبر
ولا تعترف بالذل في طلب الغنى فإن الغنى في الذل شرٌّ من الفقر

العودة إلى الوطن

وقد عاد إلى الوطن سنة ١٩٠٠ بعد أن فقد نور عينيه في منفاه ، فاستقبل مصر بقصيدته

التي مطلعها :

أبابل مرأى العين أم هذه مصر فأبى أرى فيها عيوننا هى السحر
فإن يك موسى أبطل السحر مرة فذلك عصر المعجزات وذا عصر
إلى أن قال :

وإنى امرؤ تأبى لى الضيم صولة مواقعها فى كل معترك حمر

(١) أى لا يذم ولا يضر . (٢) القانع هنا : السائل المتذلل ، والصفير : الذهب .

أبي على الحدثنان لا يستغفري عظيم ولا يأوى إلى ساحتي ذعر

عبرة الحوادث

ومن قصيدة له قالها بعد عودته من المنفى تفيض توجعا لحالة البلاد بعد أن جثم الاحتلال على صدرها ، وقد تذكر عند ما مر بقصر الجزيرة أيام إسماعيل حين كان في أوج سلطانه ، وما انتهى إليه أمره من خلع وخسران ، وتذكر أخطائه التي كان لها أثرها في التمييد للاحتلال ، فلم يتحرم على عهده ، ونظم هذه القصيدة معتبرا ومذكرا ، وهي من آيات الشعر في العظة والاعتبار ، قال :

هل بالحى عن سرير الملك من يزع ؟ هيات قد ذهب المتبوع والتبع !
هذى (الجزيرة) فانظر هل ترى أحدا ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع ؟
أضحت خلاء وكانت قبل منزلة للملك منها لوفد العز مرتبع
فلا مجيب يرد القول عن نبأ ولا سميع إذا ناديت يستمع
كانت منازل أملاك إذا صدعوا بالأمر كادت قلوب الناس تنصدع
عاثوا بها حقبة حتى إذا نهضت طير الحوادث من أوكارها وقعوا
لو أنهم علموا مقدار ما فغرت يد الحوادث ماشادوا ولا رفعوا
دارت عليهم رحي الأيام فانشعبوا أيدي سبا وتخلت عنهم الشيع
كانت لهم عصب يستدفعون بها كيد العدو فما ضروا ولا نفعوا

أين المعامل بل أين الجحافل بل أين المناصل والخطية الشرع ؟
لا شيء يدفع كيد الدهر إن عصفت أحداثه أو يبق من شر ما يقع
زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم ولا تعطلت الأعياد والجمع
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر وإنما صفوه بين الورى لمع
لو كان للمرء فكر في عواقبه ماشاب أخلاقه حرص ولا طمع
وكيف يدرك ما فى الغيب من حدث من لم يزل بغير العيش ينخدع

دهر يفر وآمال تسر وأعد حمار تمر وأيام لها خدع
يسعى الفتى لأموار قد تضر به وليس يعلم ما يأتي وما يدع

يا أيها السادر المزورّ من صلف مهلا فإنك بالأيام منخدع
دع ما يريب وخذ فيما خلقت له لعل قلبك بالإيمان ينتفع
إن الحياة ثوب سوف تخلعه وكل ثوب إذا مارث ينخلع

وظل البارودي بعد عودته من المنفى في عزلة عن الناس ، لا يجتمع إلا بالصفوة المختارة
من الأدباء والشعراء والحافظين لمهده ، إلى أن كانت وفاته سنة ١٩٠٤ ، خلف مجدا لا يبلى
على الزمان .